العـــــــــلاج النفســــــــي و خطــــــــورة المنطــــــق

الأبعـــاد النفسيـــة لعلـــم السلـــوك الإســـلامي

د. إدريـــس عبـــد الســـلام شاهـــدي الوزانـــي – استشـــاري الطـــب النفســـي
تقديـــــــم: أ.د.مالـــك بـــدري – أستـــاذ علـم النفـس ، الجامعـة الإسلاميـة العالميـة بماليزيـا
driss.chahdi@gmail.com

المحتويات

1. مقدمة : أ.د. مالك بدري
2. بين يدي الكتاب
3. مقدمات ووقفات جوهرية
- الكتابة و الدافع
- صرخة الفطرة
- فلسفة العرض النفسي
- التفكير و التفكر
- قضية الموت و الحياة.
- وقفة مع الانتحار
4. الباب الأول : أهم الاتجاهات في العلاج النفسي
- كلمة عن مناهج البحث في علم النفس.أهم المدارس في العلاج النفسي
- الفروق الجوهرية 1
- المدارس و الخلفية الفلسفية
5. الباب الثاني : العلاج النفسي و البعد الميداني
- العلاج النفسي بين الفنية و الممارسة و المنطلق
- العلاج النفسي بمفهوم التغيير
- الدوافع بين الإسلام و الاتجاهات الوضعية
- التحليل النفسي بين النظرية و الواقع
- فن التخاطب عوض النهج التفسيري
- ميلتون إريكسون أو ميلاد العلاجات الاستراتيجية
- السلوك : فكرة و نية
6. الباب الثالث : العلاج النفسي من منظور إسلامي
الفصل الأول : الجهاز النفسي:
- تمهيد
- الروح
- العقل
- القلب
- النفس
الفصل الثاني : الدعائم الأربعة :
- الإيمان
- السلوك
- الابتلاء
- المسؤولية
الفصل الثالث : نحو إطار علاجي :
- المقابلة الأولى و المرجعية التأصيلية
- المسؤولية و الإرادة
- اجترار الماضي و مرض الوسواس

- القيمة التاريخية و العلاجية للأحداث
- الذكر و التذكر: ماض من نوع خاص
- أهمية القناة التخاطبية في العلاج
- الصحبة أو فلسفة العلاقة العلاجية
- الرياضة النفسية أو ذروة العلاج النفسي الإسلامي
- علم السلوك : سبيل السعادة
- الرؤى و الأحلام و دورها النفسي عند علماء النفس المحدثين
- الرؤى و الأحلام و دورها النفسي في الإسلام
- الدعائم الأربعة : نظرة ترابطية

7. خاتمة..

مقدمــــــــــة

كلما قرأت كتاباً عن التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية الغربية، رجعت بي الذاكرة إلى بحث نشرته لي الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا قبل أكثر من أربعة عشر عاماً. فقد وضعت في ذلك البحث معايير مهمة لتمحيص قدرة الباحث على أسلمة هذه العلوم الغربية. فذكرت أنه يجب على من يتصدى لهذا الميدان الخطير أن يتحلى بخمس خصائص: أولها الإخلاص و صدق النيّة فبدونها يصبح العمل خاوياً من من دفء العاطفة و من بركات السماء و عمق الفكرة فتصبح الأسلمة ضرباً من الزيف و النفاق.

ثم تأتي أهمية معرفة الباحث بتخصصه الاجتماعي أو النفسي و تعمقه بالدرجة التي يتفوّق بها على أقرانه ويسهم بها في ميدانه الغربي. و لنذكر في هذا المجال أنّ حجة الإسلام الغزالي لم يكتب في نقد الفلسفة بكتابه "تهافت الفلاسفة" إلاّ بعد أن سطر كتابه المشهور "مقاصد الفلاسفة" و برهن لجميع فلاسفة عصره أنه "فيلسوف" لا يشقّ له غبار. فيجب ألاّ يكون ميدان التاصيل الإسلامي ملاذاً للفاشلين في تخصصاتهم و المتسلقين "بإسلامية المعرفة".

و من نافلة القول أن نؤكد بأنّ المتصدي للأسلمة يجب ان تكون له معرفة شمولية بالإسلام: ديناً و صبغة متميزة لنظرة المسلم للكون و الحياة و ما بعد الحياة. دراسة كتاب الله و سنة رسوله صلى الله عليه و سلم و سيرته المطهرة و شمائله العظيمة و سيرة أصحابه و التعرف على إسهامات العلماء القدامى في ميدانه النفسي و الإجتماعي من الأمور التي لا يستغنى عنها ليكون التأصيل أصيلاً.

هذه ثلاث خصائص، أما الخصيصة الرابعة فهي اكتساب خبرات وافية عن دور الإسلام الحركي في التصدي لمشاكل المسلمين المعاصرة و حلّها. فيجب أن يتحلى "المؤسلم" للعلوم الإنسانية و الاجتماعية الغربية بنظرة دينامية و حركية للإسلام بوصفه أسلوبا للحياة و فكراً متجدداً و لا ينظر إليه و كأنّه حضارة تأريخية في زمن مضى أو كقطعة أثرية من وراء ألواح الزجاج السميك في متحف حديث. إنّ أهم العوامل التي فصلت بيننا و بين ديننا و حضارتنا الإسلامية هي قبولنا بدعوى المستعمرين بالفصل بين ما أسموه بالعلوم الدينية و العلوم العصرية. و لعل علاج هذا الفصم هو الهدف الرئيس للتأصيل الإسلامي. فبدون القضاء على هذه الثنائية البغيضة لن نستطيع أن نؤسس حضارة اسلامية تجمع بين التقدم العلمي الحديث و الفكر الإسلامي العريق.

و أخيراً ذكرت بأن الخصيصة الخامسة للمتصدي للأسلمة هي قدرته الذهنية و الابتكارية في استخلاص الجوانب المفيدة في تخصصه الغربي و ربطها بالفكر الإسلامي و حتى استخدامها في الوصول إلى مفاهيم جديدة واجتهادات مرموقة لم يسبقه إليها أحد. فعلماؤنا من مثل ابي حامد الغزالي و الباقلاني و حتى الشافعي قد استفادوا من علم المنطق اليوناني في صياغة أفكارهم و استحداث علوم كعلم أصول الفقه. فبالرغم من أنّ الفكر الغربي يقوم على فلسفة علمانية تكره الدين و الاستسلام لله تعالى فهو يحتوي بين ثنايا ركامه على كثير من الومضات المفيدة التي ورثها من حضارات سابقة أو لأنّ الناس و إن اختلفت مذاهبهم و أفكارهم فهم خلق الله الذي سوّاهم و ألهمهم ذات الفطرة و نفس المكونات الجسدية و النفسية.

بين يديّ كتاب قيّم فريد في نظرته الإسلامية للطب النفسي و لعلم النفس بشكل عام، استوفى مؤلفه العالم الفذ الدكتورإدريس عبد السلام شاهدي الوزاني استشاري الطب النفسي بالمدينة المنوّرة جميع الشروط التي ذكرناها و زاد عليها. فالدكتور إدريس قد ورث العلم الديني و الإخلاص لله تعالى من أسرة كريمة لها إسهاماتها الدينية و الروحية في العالم الإسلامي بأسره تلك هي أسرة الأدارسة في المغرب الأقصى، كما حذق علم الطب و الطب النفسي الغربي و نال درجة الدكتوراة في ديار الغرب وعمل في مستشفيات باريس لأكثر من عشر سنين. أما قدراته الابتكارية و الذهنية فقد برهن عليها في هذا الكتاب القيّم.

إختار لكتابه عنوان "العلاج النفسي و خطورة المنطلق: محاولة تأصيل العلاج النفسي من منظور إسلامي" و شرّفني بكتابة هذه المقدمة له. قلت أنه استوفى جميع الشروط الخمسة التي ذكرناها و زاد عليها بناحية فاتت عليّ عندما كتبت بحثي آنف الذكر. تلك هي أهمية الدافع و التحرق لتاصيل علوم الغرب النفسية و الاجتماعية التي ضلّت و أضلّت كثيراً من طلاّب العلم في الشرق و الغرب. ذلك بأنّ الباحث في هذا الميدان قد يتصف بعلمه الغزير في تخصصه و في دراسته للإسلام : ديناً و أسلوباً للحياة، ويكون الله تعالى قد حباه بذكاء وقاّد و قدرات ابتكارية، لكنه يفتقد إلى الدافع القوي لأسلمة علوم تخصصه كسلاً منه أو لانشغاله بأمور الحياة التافهة. و أنا أعرف كثيراً من الزملاء لا يمنعهم من القيام بهذا العمل المبارك إلاّ انشغالهم ببحوث في تخصصهم العلماني لتنشر لهم في دوريات غربية تؤهلهم للترقي في جامعاتهم رغم اعترافهم بخطورة ما يدرسونه على فكر طلابهم و عقيدتهم الإسلامية و تقديرهم لموضوع التأصيل.

عالمنا الفذ الدكتور إدريس استجاب لرغبة جامحة و دافع لا يستطيع له رداً في كتابة هذا البحث القيّم الذي جمع بين دفتيه مزيجاً مباركاً من الدراسات الإسلامية المتعمقة و الطب النفسي و علم النفس و الفلسفة و الدراست الحضارية المقارنة صاغها بلغة عربية متميّزة و اسلوب سهل ممتنع. إستمع إليه أيّها القارئ الكريم ليتضح لك ما ذهبت إليه حين يقول :

"كنت دوماً أحس برغبة جامحة للكتابة في علم التزكية و في أسس و فنيّات العلاج النفسي، معاً و بصفة مقارنة ، برغبة و بدافع قويين كجنين أوشك على الولادة و قد طال به المخاض، يرمق هذا المخاض بنوع من الترقب و التأمل، يتطلع إلى ولادة طبيعية مكتملة و لا تهمّه مجرد الولادة ، لأنّ العالم يعج بالولادات كل لحظة، و ما أكثر ما يكتب و ينشر... الكتابة مسؤولية كبيرة، إذا لم يكن هناك هدف شريف و سام و حاجة ملحة للكتابة ، تكون هذه الكتابة عبارة عن حروف و كلمات لا طعم لها، عبارات ينطح بعضها بعضاً.... فالكتابة إذا لم تحرك الوجدان و تحفز القارئ ليشق طريقه نحو التغيير ، تكون نوعاً من الترف الفكري "

و أرجو ألاّ يذهب بك الظن أيها القارئ الكريم أنّ المؤلف قد أخضعته رغبة جامحة خاطفة كالبرق فاستجاب لها بسيل من الأفكار و الأحاسيس سطرها في صفحات كتابه في أيام و شهور قلائل كما يستجيب الغيث لقصف الرعود، فالكتاب مجموعة من الخواطر والأفكار و الأحاسيس

زادت على الستين فقرة سطّرها في مدة تخطت العشرين من السنين. و بالرغم من جولات فارسنا الإدريسي – فارس الفكر و القلم – من تخصص إلى آخر في كل فقرة من فقرات الكتاب، لكنّه و باسلوبه المتميز وعلمه الغزير يشعرك بشمول المعارف النفسية و الاجتماعية و بعظمة الإسلام و إعجاز قرآنه في تنزيل السكينة على قلوب المرضى و المضطربين. فالبحث في مجمله يذكرني بكتاب " صيد الخاطر" للإمام بن الجوزي الذي قال في مقدمة كتابه :

" لما كانت الخواطر تجول في تصفح أشياء تعرض لها ، ثم تعرض عنها فتذهب، كان من أولى الأمور حفظ ما يخطر لكيلا ينسى. وقد قال صلى الله عليه و سلم، " قيدوا العلم بالكتابة " و كم قد خطر لي شيء فأتشاغل عن إثباته فيذهب، فأتأسف عليه......فجعلت هذا الكتاب قيداً لصيد الخاطر." (ص 43 دار الفكر، بيروت ، بدون تاريخ)

و في قول مشابه يكتب مؤلفنا :

"لاح لي أن أكتب في العلاج النفسي و علم النفس المرضي بالطريقة التي أدون بها عادةً خواطري ....أجول مع من يسميهم الطب النفسي بالمضطربين من خلال سمات شخصياتهم و طبائعهم ، هل ما ألم بهم نهائي و حتمي أم أنّ الأمل موجود على مقربة منا ولا نراه لتقوقعنا وراء أسوار من التصورات و الخلفيات و الحتميّات تحت وطأة الواقع وتحت وطأة نفسيتنا و ضغوطنا و طبعنا و رواسب تربيتنا...أريد أن أتكلم عن الاضطرابات النفسية بأسلوب يصل إلى أعماق القارئ..لا أريد حشو دماغ أو ترفاً فكرياً .... "

نعم لقد نجح المؤلف نجاحاً باهراً في جولته فتحدث للمضطربين بما في قلوبهم و سطّر لهم قولاً بليغاً. حدثهم عن "صرخة الفطرة" في أعماق كيانهم النفسي و الروحي...حدثهم عن "التفكير و التفكر" و صلتهما بتكوين المرض النفسي و علاجه...حدثهم عن "قضايا الموت و الحياة"...حدثهم عن أهم الإتجاهات في العلاج النفسي و كشف لهم عن مستور الخلفيّات الفلسفية لهذه المدارس و كيف تدثرت هذه الفلسفات زوراً و بهتاناً برداء العلم و ما هي في الحقيقة إلا تصورات علمانية و مسخ لفطرة الله التي فطر الناس عليها...حدثهم عن " العلاج النفسي من منظور إسلامي" و عن المفهوم الإسلامي للروح و للقلب و للعقل....حدثهم عن الإيمان و السلوك و الابتلاء...و حدثهم و حدثهم. وحتى لو اختلف القارئ مع المؤلف في بعض القضايا البسيطة إلا أنه سينبهر بحسن المنطق و جمال الأسلوب.

لقد أهدى لنا الدكتور إدريس سفراً قيّماً سيكون له أثره الكبير على النفسانيين و مرضاهم و على القراء المثقفين و غيرهم.

مالك بدري – استاذ علم النفس و كبير المستشارين بالعيادة النفسية

قسم علم النفس و علم النفس التطبيقي بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا

بســـــم اللـــــه الرحمـــــن الرحيـــــم

بيـــــن يــــــدي الكتـــــــاب

محاولة تبويب بحث كالذي بين أيدينا من الصعوبة بمكان، و ذلك لأن كل صفحة فيه تتكلم عن الإنسان و أحواله و عن درجة من درجات صحته أو مرضه، و لأن أسلوب البحث تحاوري قلبي على نسق الخواطر و السّمر الأخوي الهادف، و لأنه كتب أو جمع على مدى أزيد من عشرين سنة من ممارسة مهنة الطب النفسي و قبلها، فهو يمثل أولا رحلة إنسان الروحية و النفسية و المهنية، و هو بعد ذلك رسالة و دعوة إلى كل صادق و كل غيور على دينه و إلى كل من أبهمت عليه ألغاز و مصطلحات علم النفس الحديث، يكتفي بما وضح من عبارة مؤلف ما أو مؤسس لمدرسة في العلاج النفسي متجاوزا ما أشكل من عبارة غير مدرك بأن هذه المنهجية في التحصيل تمثل خطورة بالغة، و ذلك أن كثيرا من المؤلفين خصوصا فيما يتعلق بموضوعنا يستعملون عبارات غامضة يتبين بعد التمحيص و الدراسة المتأنية أنهم لم يتمكنوا من الإيضاح لإبهام المعنى لديهم هم أنفسهم، و أحيانا لأغراض و نوايا شخصية أخرى.

هذا البحث ـــ كما سيتبين للقارىء بحول الله ـــ ليس ردّا متعصبا و ليس موقفا دفاعيا ، هو نتاج تجربة و ممارسة ميدانيتين في مجال الطب النفسي، ممارسة مليئة بالتفكر في حقيقة هذا الإنسان على اختلاف دينه و معتقده و ثقافته و جنسه، ممارسة لمهنة الطب النفسي كتخصص طبي اتفق العالم على توحيد مصطلحاته التشخيصية على وجه الخصوص ، و اختلفوا حول أساليب و فنيات العلاج النفسي، و لم يكن هذا الاختلاف حاصلا لولا اختلاف منطلقاتهم، حيث منهم من يرى بأن المرض النفسي هو اختلال في المنطق، و منهم من يرى بأن الفراغ الروحي هو المتسبب في الانحرافات المزاجية و الروحية، و ذهب آخرون إلى القول بوجود خلل في العلاقات الإنسانية سواء داخل الأسرة أو بين أفراد المجتمع، و آخرون يرون بأن نقطة الانطلاق تكمن في طرق التربية و التعليم، و ما المرض النفسي إلا تعلم لأساليب خاطئة ترسخت مع مرور الأيام، و العلاج يكمن في إعادة التربية و التعليم.، و منهم من يعزو الاضطرابات النفسية إلى تغيرات بيولوجية و هرمونية مستدلين بتأثير الأدوية الكيماوية على المزاج بل و على تدفق الأفكار، و تأثير بعض المواد المنشطة و المهلوسة على تغيير درجة الوعي و تشويه الحقيقة أحيانا، و هكذا استقلت كل مدرسة بمبادئها و منطلقاتها، و لا شك بأن كل اتجاه وُفّق في إدراك جانب من جوانب الإنسان المتعددة، وأغفل الجوانب الأخرى وحرم تبعا لذلك من النظرة الشمولية المتكاملة للإنسان، بل أغفل أهم ما يميز هذا الإنسان:" روحه ".

الغاية القصوى التي يطمح لها هذا البحث المتواضع هو التوصل للغرف من القرآن الكريم و السنة المطهرة كمصدر أساسي لفهم كل ما يتعلق بالإنسان من الناحية النفسية، لأنه يحتوي فعلا على كل هذه المبادىء والأسس مجملة، و علينا أن نكتشفها من خلال معايشتنا و مقاساتنا لخلق الله المتعددة مشاربهم و طموحاتهم و انحرافاتهم و إشراقاتهم، لا يمكن أن يكتشف الإنسان السرّ الكامن في خلق الخلق إلا إذا استوعب و استلهم هذا السر في كل ما يتعرض له ، تعلق ذلك به مباشرة أم تعلق بغيره، يكون همّهُ حقيقة هو اكتشاف هذه الوحدة المتناسقة الموجودة فعلا و التي تغيب عن أنظارنا و بصائرنا لانشغالنا ببحثنا عنها في غير مظانّها!

منطلقات الباحثين غالبا ما تنبع من تأملات و تحليقات شخصية، عبارة عن نظرة ذاتية بكل ما تحمل كلمة "ذاتية" من معنى، أي أنها تُعبّر عن حقيقة الشخص لا عن الحقيقة بإطلاق، لأن هذه الأخيرة من حق فاطر النفس حصرا، القائل في محكم التنزيل" **ألا يعلم من خلق و هو اللطيف الخبير" (الملك 14).**

استوقفني كثيرا قوله تعالى :" **و إن لكم في الأنعام لعبرة، نسقيكم مما في بطونه من بين فرث و دم لبنا خالصا سائغا للشاربين" (النحل 66)...**

كيف أن هذا الشراب الأبيض الناصع السائغ الخالص أي اللبن يتكون من مزيج من مركبات يستقذرها الإنسان في العادة، و لا يمكن بحال أن يستسيغ كل مركب على حدة..

لو أمكننا استعارة البعد المجازي للآية الكريمة، نقول بأن مبادىء و أسس و آليات العلاج النفسي لا يمكن أن تنبع من تحليقات شخصية ذاتية صرفة، فهي ليست قطعة أدبية أو قصيدة شعرية تتفتق عنها قريحة فلان أو فلان خلال جلسة هادئة وسط مناظر من الطبيعة الخلابة!..

التوصل لفهم الآليات النفسية ينبع ـــ إن جاز التعبير ـــ من بين "فرث" الاضطرابات النفسية من ضلالات و أوهام و عقد و ضعف و عنف و تصرفات غير عقلانية و غريبة، و بين "دم" المعاناة الإنسانية المترتبة عن هذه الأحوال، أقصد بهذا أن فهم الآليات النفسية يتم من خلال الممارسة الميدانية المثابرة و الأليمة أحيانا بل غالبا، و من خلال معايشة الشقاء البشري و الضعف و الحضيض من الغرائز، معايشة هذه الأحوال القاسية و محاولة فهم مسبباتها من خلال نظرة متأنية فاحصة ميدانية عملية مع اللجوء لفاطر النفوس و مسبب الأسباب و استمطار رحمته ، من شأن كل هذا أن يوصل العبد لطرق سبل الهداية أي طريق الفطرة، و اللبن يعني الفطرة في الرمزية الإسلامية!

اللبن السائغ هوبمثابة الفهم عن الله الذي يكرم به المولى عز و جل الباحث عن أسرار الخلق و الذي يتحلى بالتواضع اللازم اللائق بالباحث الجاد و الصادق و المثابر و المستبطن هو أولا في نفسه مقومات العبودية.

المدارس التي سيتعرف عليها القارىء فيما بعد تشكل أهم الاتجاهات العلاجية الموجودة حاليا في الساحة النفسية، و البحث تطرق أساسا للخلفية الفلسفية و للتصور المبدئي لكل مؤسس اتجاه، و لم يسهب في شرح تفاصيل الفنيات و التقنيات إذ ليس هذا البحث مجال تفصيلها، و لا أرى شخصيا فائدة بالنسبة للقارىء في أن يتبحر في دهاليز فنيات تنسيه أو تلهيه عن الخلفية و هي الأخطر!

الذي أريد أن أشدّ إليه انتباه القارىء و بقوة هو أن أي اتجاه في العلاج النفسي له تصور مسبق عن الإنسان هو الذي يشكل العمود الفقري و روح المدرسة أثناء التطبيق العملي..

فالذي يتوجه للمحلل النفسي الفرويدي المنحى مثلا بقصد علاج خوف مرضي أو بقصد التعرف على نواحي شخصيته يجب أن يعلم مبدئيا أن هذا المحلل سوف يتعرض لماضيه بالتفصيل، و سيحاول هو و المريض أن يعثرا أثناء هذا التنقيب على مكونات المرحلة الفمية و الإستية و العقدة الأوديبية، بمعنى استحضار أو السعي لاستكشاف العواطف الخاصة بالحب أو بالتعلق و العواطف الخاصة بالكراهية تجاه أقرب الناس إليه بالأساس. هذه الرحلة عبر عالم الغرائز و المشاعر السلبية أساسا تستغرق سنوات ذوات العدد و بمعدل ثلاث جلسات أسبوعية، و قد قام بعض الباحثين بإجراء استبيانات إحصائية لحجم العلاقات الغرامية و الجنسية بين المحللين النفسيين و المحللين(بالفتح)، فكان الرقم صاعقا!!

الذي يتوجه نحو المحلل النفسي الفرويدي لا يكلف نفسه إلقاء نظرة و لو بسيطة على تاريخ نشأة هذه النظرية و مراحل تطورها،بل غالبا لا يعلم بأن هذه المدرسة هي عبارة عن نظرية أي افتراض شخصي لفرويد لا ينبني على أي أساس علمي، فما الذي يمنعه من مناقشة أصول النظرية قبل أن يعيش طوال خمس أو سبع سنوات مع هيامات و أحلام الطفولة و محاولة فكّ شفرة العواطف المؤلمة على وجه الخصوص تجاه الأب و الأم و فكّ شفرة حيله العقلية؟...

ما الذي يستفيده حقا من هذه الرحلة الغريزيةالطويلة و المكلفة جدا، علما بأنه يتفاعل طوال الرحلة مع واقعه الحالي بعقلية الطفل بل الرضيع أحيانا؟؟!

هذا البحث يُعرّي أهمّ المدارس في العلاج النفسي من بريقها الإعلامي، و من عباراتها الطنّانة المغرية، لينفذ إلى الخلفية وراء كل اتجاه، يضع الأصبع على أسخن نقطة في الموضوع، و يتيح للقارىء فرصة و إمكانية استعمال عقله النقدي و ميزانه التمحيصي الشخصي، يطمح هذا البحث إلى تبصرة القارىء و الباحث عن الحقيقة ببشرية المؤسّسين لهذه المدارس، و أحيانا بسلوكهم الغريب أو الشاذ، و أحيانا أخرى بتزييفهم لبعض الوقائع و الأحداث التاريخية لفرض نظرتهم على الناس، يفهم القارىء بعد ذلك بأن انتشار مدرسة ما له دوافع أخرى تعتمد أساسا على شخصية المقتنعين أو المنتفعين خصوصا بالنسبة للتحليل النفسي و العلاج الجشطلتي الوجودي الإلحادي.. فإذا ما تمّ استبصار القارىء بهذه الخلفيات و ألمّ بروح المدرسة، حينئذ يتحمّل مسؤوليته كاملة في نهج هذا الاتجاه أو ذاك، سواء تعلق الأمر بالمريض النفسي أو بالمعالج النفسي.

وقد توصل كاتب هذه السطور إلى نتيجة جوهرية و هي أن أيّ اتجاه في العلاج النفسي ينطلق من خلفية فلسفية أو دينية أو ثقافية أو تربوية وراثية يبني عليها أسس مدرسته بعد ذلك، و كلها نظرات بشرية قاصرة و مُعبّرة عن عُمق شخصيات مؤسسيها[1]، و لا نلوم "فرويد" في إصراره على دافعي الجنس و العدوان إذا لم تكن شخصيته تملك غيرهما، و لا نستغرب استحالة معرفة المعنى الحقيقي لوجودنا عند "فرانكل " إذا كان هو نفسه جاهلا به، و هكذا مع سائر الاتجاهات.

البحث يطمح في النهاية لتوضيح حقيقة جوهرية عظيمة، و هي ارتباط مفهوم الصحة النفسية بالإيمان من المنظور الإسلامي، و انطلاقا من هذه الحقيقة و من هذا المنطلق، و إيمان الباحث بأن القرآن الكريم و السنة الصحيحة يحتويان على المبادىء و القواعد و الأسس اللازمة لفهم أحوال الصحة و المرض النفسيين، فهو قد سعى جاهدا لاستلهام الأسس الخاصة بمسيرة العلاج النفسي، أي الآليات النفسية التي تؤدي عند أداء وظيفتها كاملة إلى قمم من الصحة النفسية و التوازن و الصفاء الروحي، و إذا حصل خلل في دعامة من دعامات العلاج النفسي من منظور إسلامي يضطرب حينئذ نموّ الفرد و تأقلمه مع الأحداث المستجدّة، و يتعرض لانحرافات مختلفة نتعرض لها في إبّانها، و الذي أودّ أن أشير إليه مسبقا هو أن هذا البحث يدخل في صميم علم النفس المرضي بأصوله المتعارف عليها، و يتميّز عن التيارات الوضعية بمرجعيته، فهو يهدف للإلمام بالآليات النفسية الحركية، و هو هو ما أطلقت عليه " الدعائم الأربعة "، و هي مفاهيم كُلّية ، كل مفهوم يمكن أن يستقلّ ببحث خاصّ، و الدعامة في الأصل هي عمود صلب يحمل أو يتحمّل ثقل البناء من فوقه، و معنى هذا أننا تطرّقنا للأسس و الكّليات، و نسأل الله تعالى أن يكرمنا بدراسات مستقبلية تفصيلية تسبح في معاني و متعلقات كل دعامة على حدة، تكون المدارسة أيسر و استيعاب القارىء أكبر إذا ما كانت الأصول و المنطلقات مفهومة وواضحة..

تطرق البحث كذلك إلى الجهاز النفسي من المنظور الإسلامي، و الذي يبرز لنا شمولية المعطيات الدينية التي تعترف للإنسان بكل مكوناته، انطلاقا من عالم الغرائزالتي يلح على ترشيدها لا قتلها أو ازدرائها أو كبتها و هو ما يتعلق بعالم النفس، ثم يتطرق للعواطف و علاقتها بالإيمان و المعتقدات المختلفة و هذا من اختصاص عالم القلب، وبما أن الإنسان بطبيعته يحب الانطلاق و يأنف من القيود عامة فقد وهبه خالقه نعمة العقل و التي تتجلى على عالم النفس فتتهذب الغرائز، و تتجلى كذلك على عالم القلب لتعقل العواطف و لا تقع في الغلو أو في التفريط، و الجوهر الرابع المكمل للجهاز النفسي من منظور إسلامي هو "الروح" التي تمكن الإنسان من تجاوز بعده الذاتي الأرضي الضيق و العروج بكيانه كله نحو الحقيقة الخالدة ، "الجهاز النفسي" يمثل المركبة المعنوية التي تستقلها حقيقة الآدمي في رحلته نحو الخلود، و "الدعامات الأربعة" تشكل الوقود اللازم لمثل هذه الرحلة، و قد بسطنا الكلام في هذه المعاني في الفصول المعنية.

و لقد قسمت هذا البحث إلى مقدمات و ثلاثة فصول:

فبالنسبة للمقدمات و التي أسميتها:" مقدمات ووقفات جوهرية "، أورد مصطلحات مألوفة عند القارىء في معناها الظاهر و لها أبعاد تتعلق بخطورة المنطلق، كما أتطرق لقضايا جوهرية تعترض العاملين في مجال الصحة النفسية شكلا و مضمونا، أوردها جميعها حتى يصبح عندي و عند القارىء مفهوم واضح و مشترك، أي لغة واحدة و سلسة تتعلق بهذه المفاهيم الخطيرة الشأن، ثم أبرز بعد ذلك الأبعاد المتعلقة بخطورة المنطلق و الخاصة بالمنظور الإسلامي، أتكلم في البداية عن الدافع للكتابة و أهميته، و عن صرخة الفطرة التي غلفت بزيف أو بطلاء العلمانية، و عن التفكير و التفكر و عن النية و جوهريتها بالنسبة للمنظور الإسلامي، ثم أتحدث عن فلسفة العرض النفسي، و عن قضية أو حقيقة الموت و الحياة و عن السبل العقلية و الوجدانية التي ينتهجها الناس على اختلاف مشاربهم لفك رموز هذا اللغز المحير، و أختم هذا الفصل بوقفة مع الانتحار، أرى أن معتقدات الناس المتعلقة بقضية الموت و الحياة تصادف العامل في الحقل النفسي على الدوام بصورة أو بأخرى، تصل أحيانا إلى وضع الإنسان المعاني حدا لآلامه باختياره للنهاية المأساوية و هي الانتحار، و بين مجرد التفكير أو التحليق الفلسفي في معاني الموت و الحياة و بين أخذ قرار الانتحار عوالم متنوعة من الخيارات تغطي تقريبا كل مساحة الأمراض النفسية و العقلية بنسب متفاوتة.

في الفصل الأول أتطرق لأهم المدارس النفسية الموجودة حاليا في الساحة النفسية، أتناولها من حيث منهج البحث و بعض الفروق الجوهرية بينها و بين المدرسة الدينية الإسلامية، و أختم بالخلفية الفلسفية لهذه المدارس.

وفي الفصل الثاني يكون الحديث عن العلاج النفسي بين النظرية و الممارسة، و يكون التركيز على الجانب أو البعد الميداني، أستشهد باستنتاجات و أقوال المشتغلين بالعلاج النفسي فعلياً، وأقارن ما توصلوا إليه من نتائج ميدانية مع معطيات العلاج النفسي من منظور إسلامي في الفصل الذي يليه، و قد حصرت الاستشهاد بذوي الخبرة الميدانية لأنها ـــ أي التجربة الميدانية ـــ التي تنبئنا عن الصراعات النفسيةعلى الطبيعة، أي كما تكلم عنها أصحاب الشأن المعنيين حقيقة بالموضوع و هم المرضى النفسيون، و لم أتطرق للنظريات الفلسفية أو التحليقات الشخصية لأنها من جهة لا تُحصى و لا تعدّ، و من جهة ثانية لا تفيدنا كآلية نفسية نابعة من حالات واقعية ميدانية.

في الفصل الثالث أتكلم عن العلاج النفسي من منظور إسلامي، و قسمته إلى ثلاث فقرات:

–الأولى و تتعلق بالجهاز النفسي ، و سيتبين للقارىء من خلال هذه الفقرة أن النظرة الدينية الإسلامية تزري بكل ما عداها من نظرات تجزيئية تبعيضية، و تمتاز بالشمولية في مزيج عجيب و متناسق بين معطيات عالمي الغيب و الشهادة، و شبهت هذا الجهاز بالمركبة التي تستقلها حقيقة الآدمي خلال هذه الرحلة الدنيوية.

–و في فقرة الدعامات الأربعة و هي الإيمان والسلوك والابتلاء والمسؤولية، كان الحديث عن الركائز الأربعة التي يقوم عليها هرم العلاج النفسي من منظور إسلامي، بحيث لا يمكن تحقيق مسيرة علاجية نفسية بمفهومها الشامل بل و الناجع إلا إذا استوعبت ووظفت روح هذه الدعامات الأساسية، و شبهتها بالوقود اللازم للمركبة الإنسانية المكونة للجهاز النفسي لمثل هذه الرحلة.

–ثم ختمت بفقرة ثالثة و أسميتها: " نحو إطار علاجي "، لأنني لا أدّعي امتلاك النسخة أو الصورة النهائية للعلاج النفسي من منظور إسلامي، و قد أوردت فيها أهمّ و أسخن النقاط التي تعترض العاملين في الحقل النفسي كآليات تخاطبية ذات بعدين تشخيصي و علاجي، و هي تلخص في الحقيقة مجمل ما فصّل في هذا البحث المتواضع، أسأل الله تعالى أن ينفعني و ينفع بي، إنه سميع مجيب.

و الآن أدعو القارىء الكريم لبدء رحلة الاستكشاف، راجيا من العلي القدير الحنان المنان أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم ، آمين، و الحمد لله رب العالمين.

مـــــن فصـــــول الكتـــــاب

ـ الاتجاهـــــات العلاجيـــــة والخلفيـــــة الفلسفيـــــة

جل المدارس والاتجاهات ذات الصيت في العلاج النفسي لها خلفية فلسفية وراءها، لها نظرة عن الإنسان مسبقة، وهذه النظرة تحدد الأسس التي تقوم عليها دعائم هذا الاتجاه أو ذاك ، ومن هذه الأسس ينطلق بالتالي هرم الأسس في العلاج النفسي، الخاص بهذا الاتجاه أو ذلك .

يقول فرانكل (FRANKL) مؤسس العلاج بالمعنى الوجودي (LOGOTHERAPY):" أن الدلالة الميتاكلينكية (METACLINIQUE) للعلاج النفسي، تشير أساساً إلى مفهومه عن الإنسان وفلسفة الحياة، ولا يوجد علاج نفسي بدون نظرية عن الإنسان وفلسفة حياة تقوم على أساسها هذه النظرية " (1).

وهذه حقيقة لا مفر منها، لأن ميدان "النفس" هو ميدان السلوك والوجدان، أي أنه يشتمل على عناصر لا تخضع للتجريب والقياس، إذ كيف نقيس الحب والكره والفرح والحزن والنفاق والصدق...؟ فهي معان لا يسري عليها قانون المساحة والمقدار وقانون السببية والبعد الزمني.

ضرورة الوصول إلى فهم أسرار هذا الكائن العجيب الذي هو الإنسان تفرض تبني وجهة نظر "فلسفية"، لأن إشباع رغبة المعرفة يقض المضجع ويؤرق وفي نفس الوقت يحث ويستعجل، وهذا الاستعجال هو الذي يعجل بتبني نظرة عن الإنسان حتى يهدأ ذلك الصوت، وهذا التبني هو نوع من الإيمان في الحقيقة.

إن "فرويد" عبر عن هذه الرغبة "بالطاغية" (2) : "إن رجلاً مثلي – يقول فرويد – لا يستطيع أن يعيش كما قال : "تشيلر" دونما طاغية، ولقد عثرت على طاغيتي : إنها علم النفس" .

ارتفعت أيد تصفق لفرويد، في نفس الوقت الذي تعالت فيه صيحات الاحتجاج على من نزع قناع البراءة عن ثوب الطفل الرضيع، خاض فرويد هذا البحر اللجي بين مؤيد ومعارض، بل بين ساخر ومتحمس، في مجتمع كانت لا تزال تسوده بقية من النزعة الرهبانية (PURITANISME) ،مع ذلك قطع فرويد في اعتقاده الشوط بأكمله وأرسى أسس الصحة النفسية ،في نفس الفترة قطع يونغ(YUNG) شوطه وأرسى هو الآخر أسسه في الصحة النفسية، وأرسى أدلر (ADLER) أسسه وكذا استيكل (STEKEL) ، وإذا بالعالم يفاجأ بأربع مدارس في العلاج النفسي :

فرويد مؤسس التحليل النفساني.

يونغ مؤسس التحليل النفسي.

أدلر مؤسس علم النفس الفردي.

استيكل أحد مؤسسي علم النفس الديني.

انطلقوا كلهم من نقطة بداية واحدة.

فرويد آمن بنظرية التطور والارتقاء الداروينية، واعترف في كتابه : "حياتي والتحليل النفسي" بأن إيمانه هذا كان له دور في إرساء أسسه، ونظرية "داروين" فرضية بسيطة تطورت إلى أن صارت منظومة فلسفية تتخذ شكل العقيدة العتيدة تنفي مبدأ الألوهية وتتبنى نهج الإلحاد.

يونغ ابن القس النصراني المحافظ أراد بناء جسر بين التحليل النفسي والدين، لم يستطع نفي التأثير الديني على وجدان الإنسان وسلوكه، فنسب الشعور الديني برمته إلى اللاشعور، واطلق عليه "اللاشعور الجمعي" (INCONSCIENT COLLECTIF) وسمى هذا الحيز من النشاط النفسي بالحياة الروحية متبنياً بالحرف أفكار التطور الدارونية مقرراً بأن الحياة الروحية إن هي إلا ترسبات عبر القرون لاعتقادات البشر منذ نشأة الجماعة البشرية الأولى في الأرض.

"يونج" يكتشف عالم "اليوجا" و ينبهر بقدرات هؤلاء الفقراء الهنود اليوجيين الخارقة و تحكّمهم المذهل في طاقاتهم الجسدية و الروحية!

تحليل أو استنتاج يونج هو في الحقيقة إقرار بعجزه عن فهم ما يدور داخل النفس بالنسبة للاضطرابات النفسية، و ميله لتفسير هذه الاضطرابات النفسية على أنها من جنس العمليات التي تحصل عند البدائيين أو اليوجيين دليل على محاولته و بأي ثمن إيجاد تفسير و معنى لهذا اللغز المحير، فقوله :"نعلم اليوم أنه داخل النفس توجد عمليات تغيير ذات طابع روحي وراء العمليات التدريبية التعليمية التي نطالعها في علم نفس البدائيين أو في الحالات الناتجة عن حركات اليوغا (YOGA) "، رغم إقراره بأننا لم نوفق إلى تعريف هذه القوانين، يدل فقط على محاولة "إسكات" صوته الباطني الملحّ، و هو القائل : : "كم مرة سمعت مريضاً يصيح في وجهي: لو كنت أعرف اتجاه وهدف وجودي لن يكون هناك مبرر لهذه الاضطرابات العصبية.." ويقول معلقاً على هذه الصيحة : "تبرز هنا الضرورة الغير خاضعة للعقل (IRRATIQONELLE) ، لوجود حياة تسمى "روحية" (SPIRITUELLE) الحياة التي لا يجدها في الكليات ولا في المكتبات ولا حتى في الكنائس ، أنه يرفض ما يلقى إليه هنا من مجموع الكلام الذي يخاطب الفكر دون أن يحرك القلب ...في مثل هذه الحالة تعرّف الطبيب على حقيقة الحياة الروحية يكتسي أهمية أساسية، وهذه الحقيقة هي التي يبرزها "لا شعور" المريض في أحلامه على شكل محتويات يمكننا أن نطلق عليها طابع "دينية"... إن إنكار المصدر الروحي لهذه المحتويات سيؤدي حتماً إلى علاج عكسي وإلى الفشل.

المعالج اليونجي يدخل مع المريض في علاقة "لاشعورية" على صعيد الأحلام لدرجة أن كلاًّ من المعالج و المريض تتداخل أحلامهم و "تتكامل" و تتلاقى خلال مسيرة التحليل النفسي أنماطُهُما الأوّلية، بل أحيانا يكتشف كلٌّ منهما أشياء من الماضي مشتركة بينهما!..تحاليل في غاية الروحانية السقيمة تتسم أحيانا بطابع "الشعوذة العلمية".

التحليل النفسي اليونجي العليل أخطر من التحليل الفرويدي الغريزي، و على المعالج النفسي المسلم أن يتنبه لهذه المنطلقات و هو يطبق هذه الفنيات، لأنها في النهاية تؤدي إلى الإلحاد و إلى إنكار مبدإ الألوهية من أساسه.

و في المجال الميداني العملي لم تُبنْ هذه النظريات عن قيمة علاجية حقيقية، و الخاضع لمثل هذه الجلسات التحليلية يدخل أحيانا في عالم من الاعتقادات الروحانية التناسخية و التي لا تمُت للدين الحق بصلة، عالم من الأوهام و التعلقات تكتسب طابع العقيدة تحت ستار العلمية المزيفة، و العبرة بنهاية المطاف و بالحالة الوجدانية للمريض، لا ببريق النظرية و تلويحاتها غير المبرهن عليها على الإطلاق.

" أدلر" : حث الناس على التجمع والالتحام والانصهار في الجماعة مقرراً بأن المريض النفسي يسعى نحو "غاية موهومة" متبنياً هو الآخر أساس النظرية الدارونية : "فالطبيعة التي أمدت الحيوانات بمخالب وأظافر لحماية نفسها، هدت الإنسان إلى غريزة التجمع بكل أشكاله من زواج وصداقة وقبلية.... بل أن اللغة تابعة لغريزة التجمع، إذ لو كان الإنسان يستطيع أن يقاوم الحياة وحده لم تكن به حاجة للغة ولا لتزاوج، حتى الزواج عند "أدلر" تابع لغريزة التجمع وابقاء النوع، والدليل عنده عالم خلايا النحل الذي يقصر الوظيفة الجنسية التناسلية على البعض ويحرم الباقي

الخلفيـــــة الفلسفيـــــة للعامـــــل الاجتماعــــــي عنـــــد أدلـــــر :

يقول أدلر : "إننا في الحكم على أخلاق الفرد ينبغي أن نسترشد بمقدار نفعه للجماعة، وعمله على هناء الإنسانية كلها[2]

لأن " الأفكار والكليات مثل العقل والفهم والمنطق والأخلاق والجمال تصدر كلها وتنشأ من حياة الناس الإجتماعية، وهي – في نفس الوقت – أربطة وثيقة بين الأفراد، يبتغون منها منع المدنيّة من التفكك".

إذاً فمفهوم الفطرة والروح – عند أدلر – لا وجود لها، حيث أن غايات الحياة عنده لا دخل للأخلاق فيها، لأنها تتلخص عنده في نقاط ثلاث:

أولاً : العمل لزيادة الرفه وللإقلال من الجهد في الحصول على هذا الرفه.

ثانياً : حسن معايشة الناس.

ثالثاً : الميول الجنسية .

المدرسة الأدلرية تشترط إذاً وجود غاية يسعى لتحقيقها الإنسان كقاعدة أساسية و ضرورية لأي سلوك سوي ، حيث إن غيابها يؤدي إلى حدوث اضطرابات نفسية ، يقول "أدلر" :" **إن الانحراف كما يظهر في كل من الأمراض النفسية و العقلية لا ينتج عن الميول الفطرية ، بل عن غاية نهائية موهومة..**"

و هو في الحقيقة يستعمل الغاية بصيغة الجمع، لانه بالنسبة لأدلر لا يمكن أن تتكون الشخصية إلا إذا كانت لها غاية تسعى لتحقيقها ، ذلك أننا لا نستطيع أن نفكر أو نشعر أو نريد أو نعمل دون إدراك لهدف ما..

فكلما فكر الإنسان أو شعر أو وجّه إرادته أو قام بعمل ما يكون في هذه الأحوال قد وضع هدفا معينا أمامه ، و يكون سلوكه منسجما مع هذا الهدف..

لا مجال للأخلاق و القيم عند " أدلر" باستثناء دعوته للاندماج في الجماعة و التي تخضع أساسا لنظرته الداروينية و يسميها غريزة التجمع ، و هي حسب أدلر ضرورية لبناء الحياة أصلاو التي لا يمكن أن تتم بواسطة سلوك شخص بمفرده أو بمنعزل عن المجتمع، هي إذاً استجابة لنداء الغريزة ، و في حالة عدم تلبيتها تحدث الاضطرابات النفسية.

اما بالنسبة للأهداف الحاثة على السلوك فيبدو من تحاليل أدلر أنها تخضع نوعا ما لروح المدرسة الوجودية، فهو يشترط وجود هدف ما و لا يوضح مرمى هذا الهدف و لا يناقش طبيعة انطلاقته، فبإمكان المرء أن يتبنى أيّ هدف و يسلك على ضوئه و يكون بالتالي قد حقق مقومات هذه "الدعامة".

الإحساس بالقصور هو تقرير أيْ رؤية شخصية ذاتية استنتجها أدلر من خلال معايشته لمجتمعه و محيطه ، و عمّم بعد ذلك على البشرية جمعاء..

هل كل البشر دافعهم للسلوك هو الإحساس بالنقص و القصور؟ و هل كل سلوك يصدر عنهم هو نوع من التعويض عن هذا النقص؟

كما أسلفت ليست هناك قيم عند أدلر ، و إنما هي خلفية فلسفية وجودية صلبها و عمودها الفقري نظرية "داروين"المتعلقة بالتطور و النشوء و الارتقاء، و ليس له أي مستند علمي تجريبي ، فهو تصور للإنسان كما قال "فرانكل " مؤسس مدرسة العلاج بالمعنى الوجودي .

أدلر يتكلم عن الهدف أيّ هدف ، و يقول بأنه أثناء غياب هذا الهدف لا تكفي حينذاك كل قوانين العلية في العالم لقهر عماء المستقبل أو للتغلب على ضربنا في الحياة على غير هدى.

عماء المستقبل أعتقد هو عدم وضوح الرؤية بالنسبة لشخص ما و ما يتبع ذلك من تشاؤم و من اضطرابات نفسية..

عماء المستقبل حين لا يحس صاحبه بطعم للحاضر الذي هو فيه، و حين يبحث عن معنى لوجوده فلا يجده، كأنه أعمى يسير في مفازة لا يدري ما الذي يمكن أن يحدث له، و هذا يولد بطبيعة الحال حالة من عدم الطمأنينة و من القلق و ما يتبع ذلك من اضطرابات سلوكية،يكون بمثابة الذي يخبط خبط عشواء إلى أن تفجأه الأحداث فهو لم يحسب لها أيّ حساب و هو لا يدري أصلا أين و إلام يسير؟

و حين تتكاثر الأحداث المؤلمة و التجارب السلبية بالنسبة لشخص ما و يتكرر معها عدم فهم ما يجري و لماذا يحصل له هو شخصيا هذا، **تكون المساءلة حينئذ للأحداث نفسها و للظروف المحيطة،** و بالطبع للناس الذين هم حوله أو هم السبب في اعتقاده لبعض ما يحصل له، هنا يكون هذا الإنسان "بدون هدف" عرضة لأن يحوم حول ذاته المعذبة و المتألمة يسائلها عن حقيقة ما يجري، و نعلم طبعا ما عساها أن تجيب به هذه النفس الجريحة و غير المسلحة بأدوات دفاعية، و نحن نتفق إلى حد ما مع أدلر و بالضبط فيما يخص هذه الشريحة من الناس بأن إحساسا من القصور سيكون الشعور الملازم لمثل هذه النفوس، و ربما يكون هذا القصور دافعا قويا لتغيير السلوك كتعويض عن هذه الحاة المتدنية ، لكن نختلف معه في تعميمه على البشرية جمعاء انطلاقة القصور لديهم و الدونية لتفسير أي سلوك إنساني، و "أدلر" مثله مثل "فرويد" الذي انغلق في دافعي الجنس و العدوان، فهو لم يكن يملك غيرهما، أدلر كذلك نجد له العذر في عدم التطرق أوالإحساس أصلا بدوافع سامية روحية فهو لم يُجربّها، و لو كان قد حصل له هذا لظهر جليا في كتاباته و تحاليله.

نحن نتفق مع أدلر في ضرورة وجود هدف ما لأي سلوك ، بلسان الشرع نسمي ذلك "نية" ، "**إنما الأعمال بالنيات** ..." الحديث ، و هذه النية تسائل المنطلقات أساسا، أي أن المسلم حين يهُمُّ بعمل ما فهو يرجع إلى منطلقاته أي إلى عقيدته يسائلها ، يعقب ذلك مرحلة الاختيارو التردد الموجودان في الطبيعة البشرية ، و حين تتبلور النية و تصقل الدوافع بوضوح تبدأ المرحلة العملية التطبيقية : السلوك، و الذي سنفصله أكثر حين الحديث عن دعامة السلوك ضمن دعامات العلاج النفسي من منظور إسلامي، هذا السلوك يمكن أن يكون منسجما مع المنطلقات الإيمانية أو مخالفا لها، و هنا بالضبط بداية المعاناة النفسية بالنسبة للمسلم، فمعاناته أساسا من عدم انسجام سلوكه مع أهدافه الحقيقية، و سلوكه المرضي هو نتيجة لسلوك يحدوه هدف يخالف منطلقاته، و بهذه الصورة تأخذ "الأهداف " بالنسبة للمنظور الإسلامي معنى محددا لا عائما كالذي عند "أدلر".

استيكل ألح على مفهوم "عقدة الذنب " وأنها السبب في كل انحراف سلوكي أو مزاجي، والحل هو التوبة بالمفهوم الديني معترفاً بالدين وبضرورته، مؤسساً مذهبه على "نظرية الخطيئة" (GUILT THEORY) (3) ، و لا يخفى سيطرة هذه النظرية على العقلية النصرانية و دور الرهبان و جلسات الاعتراف ، و قديما صكوك الغفران!

العلاج الجشطلتي يرتكز على فلسفة الجشطلت الألمانية المنشأ ويعتنق مفاهيم "الوجودية – الظواهرية الأروبية" عن الإنسان مؤمناً بمبدأ "الهنا والآن" الوجودي الذي لا يؤمن إلا بالإنسان، وتلك النزعة التكاملية" التي يدافع عنها ، عند التأمل في خباياها تفسر بميزان الإسلام" باستعمال كل الوسائل والحيل لتحقيق كل ما للنفس فيه رغبة" .

العلاج الجشطلتي يضع بين عارضتين ،أي يتجاهل أو ينفي كل ما يتعلق بالقيم و المعتقدات الدينية ، و يصب كل اهتمامه على الإنسان، يعتقد بل و يرسخ الاعتقاد بأن حلّ مشاكل الإنسان يجب أن تنبع من ذاته لا من خارجها، لذا فهو يلح على التجربة الوجدانية الآنية هنا و الآن، يضطر أحيانا لتضخيم شعور ما أو إحساس ما لزيادة تعميق المرجعية الذاتية، فيزداد إحساس الخاضع لمثل هذه الجلسات بضرورة و بنجاعة بل و بحتمية هذه المرجعية الذاتية، و بقدر ترسخه المعرفي و الوجداني في هذه المرجعية الذاتية بقدر ما يبتعد عن أي مرجعية أخرى، و على الخصوص المرجعية الدينية، فتكون هذه المنهجية الوجودية في الحقيقة على طرفي نقيض هي و المرجعية الدينية، و يمكن أن يتبادر إلى أذهان أصحاب المرجعية الوجودية الجشطلتية أنّ المرجعية الدينية بمثابة إملاء خارجي، أي غير نابع من ذات الإنسان و بالتالي لا مشروعية لها ، و هنا بداية التدليس و الخطر الحقيقي!..

الخطر من هذه الفلسفة و من هذه المقولة بالذات كما أثر عن الإمام علي رضي الله عنه في حق الخوارج حينما حملوا شعار " لا حكم إلا لله "،رادّا على هذا الشعار بقوله: " كلمة حق أريد بها باطل "، فهل الذي يستند على المرجعية الدينية رجل مقلد و حسب؟

علم السلوك و الذي سنتعرض له في فقرات "السلوك فكرة و نية " و " الرياضة النفسية ذروة العلاج النفسي الإسلامي" و " علم السلوك سبيل السعادة"، يؤكد على المرجعية الذاتية بشكل قوي، إذ المسلم القوي هو المقتنع حقيقة بما يتلقى من معطيات دينية، و لا يكون مقلدا و حسب .

علم السلوك واقعي بمعنى أنه يعترف بالمرجعية الذاتية و في نفس الوقت بمحدوديتها، فهناك طور يطلق عليه الإمام الغزالي"طور ما بعد العقل " أو " عين النبوة " تعجز أدوات الإنسان الحسية و العقلية عن اقتحام أسراره و تذوق معطياته إلا إذا أسلمت القيادة للروح المؤهلة لمثل هذه الرحلة المعرفية السامية، و كل ما تتوصل إليه الروح من معارف و مكاسب يعود بالنفع بعد ذلك على عالم الحس و العقل، فتعقل الحواس و تعقل العواطف و يملك حينئذ هذا الإنسان "قلبا" بمعناه القرآني :" أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها.." (الحج 46) ، " إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد" (ق. 37) .

لكل من سالك الطريق المحمدي و سالك طريق الجشطلت تأكيد على أهمية التجربة الوجدانية ، و الاختلاف في أفق كل واحد منهما، فالجشطلتي اكتفى بالانكباب على عالم غرائزه و هواجسه و شكوكه و أمراضه النفسية يسائلها و يعمق الشعور بها ، يعتبر ذلك هو السبيل إلى السعادة المنشودة، و السالك المسلم اعترف بكل هذه العوالم السفلية بدءا، اعتبر هذا الاعتراف أول عتبة للعروج بسلوكه و الترقي به، ثم انطلق في رحلة روحية سامية تقطع بكيانه ملايين المسافات، تمتاز رحلته هذه بالواقعية المطلوبة و هي الاعتراف بالضعف البشري كما أسلفنا، و تمتاز بالعلم و بالطموح الإيجابي، إذ تسعى لاستبطان السر الخفي من خلق الخلق و من تدافعات البشر و استكشاف المعنى العميق لوجوده ووجود من حوله، هذا العالم سنتكلم عن نتائجه المتينة القوية الراسخة في الفقرات التي أشرنا إليها آنفا.

هذه بعض الفروق الجوهرية بين الجشطلتية الوجودية كمذهب قاصر عن الوصول للحقيقة، و بين السلوكية الإسلامية التي تحوي في طياتها الواقعية و التحليق و السمو و رسوخ المعارف و المدارك، و الموصلة بالتالي إلى السعادة الحقيقية.

العلاج بالمعنى الوجودي، بداية للرفع من معنى الإنسان، والنهوض به من المستوى القطيعي الغرائزي إلى البحث عن معنى يعتنقه ويسعى إلى تحقيقه، إنما الإشكال يكمن في أن مؤسس هذا الاتجاه نفسه – وهو الدكتور "فرانكل" – لا يعرف هذا المعنى. بل ولن نعرفه كلنا – حسب رأيه – ولو على فراش الموت.

العلاج بالواقع، نهج أخلاقي بالأساس، في هيكله العام يشبه مبادئ الإسلام، إذ يدعو إلى إشباع حاجتين أساسيتين يلح عليهما الإسلام كثيراً: الحاجة للحب والاندماج، والإحساس بالقيمة والطريق الموصل لذلك: أن يكون سلوك المرء واقعياً، مسؤولاً وصواباً. إلا أن مبدأ "الواقعية" هذا بالذات ، هو خضوع للواقع، فالخروج على الأعراف ـــ بما فيها المخالفة للدين أحيانا ـــ تحت أي مبرر كان، هو بداية الخروج عن حدود مبدأ "الواقع" عند "جلاسر".

السلوكية أفظع اتجاه، من حيث بخس قيمة الإنسان واختزال كل دوافع سلوكه إلى منعكسات شرطية (REFLEXES) ،

الواقع و الواقعية و الاندماج و عالم القيم و الخطأ و الصواب و المسؤولية و فلسفة المعنى،هذه المعاني أو المصطلحات تحتاج منا لإيضاح أكثر

فلسفة الحياة هي الرؤية التي يعتمدها الإنسان ليحيا فوق هذه الأرض ، و الغايات التي يعتقد أنها أهدافه و قناعاته..

أحيانا يحس الإنسان باختناق و بضيق المساحة التي يتحرك بداخلها ، و يطمح لفضاء أوسع ليحقق في إطاره ذاتيته، يعتقد ذلك جازما...فينفصل عن الواقع شيئا ما، بمعنى أنه لا يعترف بقيود هذا الواقع فيما يخصه هو، و يتمنى ظروفا أخرى تمكنه من تحقيق ذاتيته، في حين هذا الواقع بهذه القيود هو الذي يمكنه حقيقة من تحقيق هذه الذات على أكمل وجه، و ذلك لأن مغالبة العوائق و الحواجز و الرضى بالواقع و بملابساته المختلفة ، كل هذه العوامل تختبر حقيقة الإنسان الباطنية و تصهر معدنه، فإذا حقق شيئا تكون له شرعية قوية و حلاوة و لذة يحس بها من كابد..

هذه هي فلسفة "جهاد النفس " أو الجهاد في الله الوارد في قوله تعالى:"و الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا و إن الله لمع المحسنين" العنكبوت69 المطالب بها المسلم خلال حياته و مكابدته لكل الصعاب و العوائق و التحديات، هي نظرة تعترف بالواقع و بالواقعية :

الواقع كمعالم سير تهمّ كل هذه القوافل و الجحافل من البشر الذين يدبون على ظهرها، الواقع يتمثل في مراعاة وجودها كأمر حتمي لا يمكن تجاهله و إلا اقتربنا من عالم الفصام و الذهان عموما..

أما الواقعية فهي التفاعل مع هذه المعالم و الخضوع لمحك التأثير و التأثر الحتمي في كل العلاقات البشرية، هذا المحك يبرز المعادن و القناعات، فرغم مراعاتي للواقع و لكل هذه العوامل من تأثير و تأثر أملك إرادة حرة و أملك على الخصوص ذاتا مستقلة بعواطفها و بعقلها و بغرائزها و بدوافعها المختلفة ، و على الخصوص روحا لها القدرة على التحليق متجاوزة البعد الذاتي الأرضي الضيق، هذه الذات المستقلة تمكنني من الاختيارأمام مواقف مختلفة و خيارات متعددة بدون إكراه من أي جهة كانت...سمات الشخصية تعانق إلى حد ما هذا المفهوم، لأن الناس تختلف من حيث استقلالية التفكير و القرار و من حيث الاعتماد على النفس أو على الغير، و من حيث التريث و الصبر على الآخرين أو الاندفاع و التهور،و من حيث إفساح المجال للخيال يسبح بحرية مبتعدا عن الواقع أو على العكس إعمال الفكر و التمحيص في كل صغيرة و كبيرة..

الإنسان يملك القدرة على بلورة هذه الخصائص، لديه إمكانية تغيير بعض الملامح في شخصيته، عنده إمكانية النقد و عدم الانصياع لكل من هب و دب ...

فنحن حين نطلب من مريض نفسي اعتماد استراتيجية جديدة في حياته، نطلب منه في نفس الوقت تغيير بعض الملامح في شخصيته و بعض القنوات السلوكية المعرفية التي كان يعتمدها فيما قبل و التي أدت حسب تحليلنا إلى معاناته النفسية الحالية..

ما نقترحه على هذا المريض هو في الحقيقة فلسفة حياة برؤية جديدة تعتمد في بعض جوانبها على رؤيتنا نحن و اجتهاداتنا نحن و اعتقاداتنا نحن!...

خلفيتنا نحن المعالجين موجودة معنويا و ضمنيا و نحن نبحر بنفسية هذا المعاني نفسيا في بحر الحياة اللجي..

في العلاج التقليدي بالتنويم المغناطيسي المبني على الإيحاء القوي المباشر يقول المنوم:" أنت الآن لا تسمع إلا صوتي، ولا تطيع إلا أوامري" ، بمعى آخريريد أن ينفث في روع الخاضع لجلسة التنويم الإيحاء التالي :" أنت الآن تخضع لسلطاني و لأفكاري و لنظرتي للكون و لمعتقداتي، أي لخلفيتي الفلسفية أو العقدية"، و هنا يكمن خطر التنويم المغناطيسي التقليدي، بخلاف الطريقة الإريكسونية الجديدة والتي اعتمدت أسلوبا تخاطبيا يحترم قناعات المريض و يساعده على استعمال طاقاته الباطنية المخبوءة و كل إيجابياته، و إذا اضطر المعالج الإريكسوني لاستعمال الإيحاء المباشر فيكون هذا في إطار ضيق جدا كمحاولة الحد من ألم عضوي حاد وفي مجال الحروق بصفة خاصة ، و كذا فيما يخص بعض المواقف النفسية التي تتسم بالجمود و العقم و تكون واضحة الغرابة و عديمة المنطق ، و يكون هذا الموضوع واضحا للمعالج و للمريض على حد سواء.

الجشطلتيون الوجوديون و على رأسهم "بيرلز" يعتبرون المجتمعات الحالية مجنونة ، و يعتبرون السير في ركاب هذا الواقع العالمي الحالي نوعا من الذهان الجماعي..

هذا التحليل له نصيب من الصواب إذا نحن نظرنا للعالم نظرة كلية و لم نتقيد بمجتمع معين أو بدين معين..

انطلاقة الوجوديين واضحة جدا، فهم لا يعترفون بدين، و عقيدتهم تتلخص في الإنسان و تحديدا في " فلسفة وجوده" ، تسائله عما يريد و تضع له كل المبادىء و المذاهب و الديانات بين عارضتين، أي تدعوه ألا يتأثر بها و أن يسعى لتكوين فكرته عن نفسه و بلورة رغباتها بصفة محايدة بعيدة عن أي تأثير!

"بيرلز"نفسه مؤسس مدرسة العلاج النفسي الجشطلتي لما وضع بين عارضتين كل المذاهب و الديانات نزل إلى أرذل و أحط مستوى من الغريزة، جرب جملة من الانحرافات الجنسية بما فيها الشذوذ الجنسي ، و في بعض مراحل تجربته الوجودية مال إلى الثقافات الشرقية، و مات و جل المقربيين إليه بما فيهم زوجته قد انفضوا عنه [3] ، و للأسف الشديد كثير من أفكاره الوجودية موجودة في البرمجة اللغوية العصبية التي يتلقفها أبناؤنا دون تمحيص للمنطلق، يغريهم بريق عبارات مثل "إثبات الذات " أو "النضج النفسي" أو " تكامل الشخصية " أو " سد الثقوب "، فيتلقفون هذه المعاني و العبارات بل و الفنيات مجردة عن " منطلقها الوجودي الخطير "!

الواقع و الواقعية بالنسبة للجشطلتيين إذاً لها خطورة، و يجب أخذ الحذر منها، فإذا اعتمد معالج نفسي روح هذه المدرسة مع مريض عنده ميول غير فطرية بسبب مرضه و كان هذا المريض ينتظر فقط فرصة تفاعله مع مثل هذا المعالج "المتفتح" ،حتما سيساعده هذا المعالج دون أن يشعر على مضاعفة حوافزه الخاصة بهذه الميول المنحرفة عن الفطرة، فكأنه لم يكن بحاجة إلا لمثل هذا الموقف الرسمي " العلمي " من قبل هذا المعالج لخوض تجربته الوجودية الثائرة على واقعه العرفي المتسم بالانسجام مع معتقدات مجتمعه و بيئته، فهو قد وجد المبرر!، هذه هي الخطورة في تطبيق فنيات دون الالتفات للمنطلقات، و هذا هو الخطر في ترديد ما عند الآخرين دون عرضه على محك " الذاتية " و " الأصالة "، أي محك المنطلقات التي تشكل حقيقة الشخصية.

الواقع و الواقعية بإيجاز هو التفاعل مع الواقع و عدم رفضه أو تجاهله أو الهروب منه انطلاقا من وضعية تتميز بالضعف و الإحساس بالدونية و بالانهزامية، تقبل الواقع هوفي الأصل تقبل للقضاء و القدرأحد أعمدة الإيمان الستة ، لكن تقبله ليس معناه الانسياق وراء كل ناعق أو التخلي عن المبادىء إرضاء لسلطة ما، تقبل الواقع يكون أحيانا باتخاذ مواقف جريئة أو باعتزال الخلق إذا استحال التعايش معهم في حال معارضتهم الصريحة للمبادىء، في هذه الحالة "الواقعية " تتسم باتخاذ مواقف متميزة تمتازبإخضاع الواقع للمحك النقدي البنّاء ، و ينتج عن هذا سلوك متميز و لو اضطر صاحب هذا السلوك أن يهمّش أو يعادى، و " رحم الله عمر ما ترك له الحق من صديق! " .

و الصراع بين المدارس في عمقه هو بين الاعتراف أو عدم الاعتراف بالدين ،والاستقراء النزيه لتاريخ نشأة مختلف الاتجاهات الحديثة يشير إلى أن التحليل النفسي وما ترتب عنه كان محاولة من مؤسسي هذه المدارس لكي تحل نظرتهم لعلم النفس محل الدين.

وأول تلميذ لفرويد تبنى النظرة الدينية لعلم النفس هو "استيكل" أحد مؤسسي علم النفس الديني ، وكان صريحاً لا يماري، في حين راوغ يونج بحله الوسط، وتعالت صيحات العلماء بعد ذلك بضرورة وجود "حياة روحية" عند الإنسان، وكلهم اتفقوا على أن الدين أعظم عاصم من الأمراض النفسية، فلا بأس بأن يستغل كعامل من عوامل الصحة النفسية , ليس كحقيقة يجب أن نشحذ الفكر والهمم لفهم مدلولها، بل كمهدئ وعامل مساعد أو على أصح تعبير كخلفية فلسفية تكمن وراء الأسس العتيدة "لمدرسة ما".

"فرويد" مثلاً يخاطب راهباً نصرانياً تبنى نظرية التحليل النفسي بقوله:" **إنك حسن الحظ على الأقل لأن الدين يذهب بالعصاب**" (4) . ويونج يؤكد على أهمية تبني نظرة دينية في الحياة مع احتفاظه بأسسه،وغيرهما كثير من علماء النفس الذين أكدوا على أهمية الدين في مجال الصحة النفسية، حتى إن كثيراً من فروع التحليل النفسي من يرى بأن الأديان تعدنا بالكثير، بينما لا يعدنا التحليل النفسي بشيء (5) .

فهل الدين لا يمكن أن يرقى إلى مرتبة الأسس التي تقوم عليها دعائم العلاج النفسي، ومكانه هو الخلفية الفلسفية الكامنة وراء الأسس فقط؟

أم أن الدين فطرة وجبلة، وبذلك فهو ضرورة وصوت باطني لازم، وبالتالي رغبة والحاح لابد من اسكاتهما واشباعهما، وإلا وقع التناقض في كيان الإنسان، وحدثت الانحرافات السلوكية والأمراض النفسية؟

هذا التعريف الأخير هو بالضبط كلمة الإسلام بشأن الدين كظاهرة نفسية تدرس، وله كلمته التفصيلية التحليلية فيما يخص ما هية الدين الحق وعلاقته بعالم الإيمان، ودرجات اليقين وسلم الأمراض والصحة النفسية، وهو ما يمكن أن نطلق عليه: أسس العلاج النفسي من منظور إسلامي

الاتجاهات العلاجية والخلفية الفلسفية :الهوامش

(1) اتجاهات جديدة في العلاج النفسي، ص 249.

(2) مجلة الفكر العربي عدد 41، السنة السابعة ص،359.

(3) مجلة العربي العدد 24، نوفمبر 1968، ص108.

(4) رسالة : الطب النفسي الجسدي – الطب النفسي والإسلام ، ص129.

(5) الفكر العربي عدد 41 س7، ص349.

الدعائـــــم الأربعـــــة : نظـــــرة ترابطيـــــة

الإيمان يخص عالم القلب و الإرادة البشرية و التي في ذروتها تسمى "الهمة"، هذه الهمة تعني قوة انبعاث القلب في طلب الشيء و الاهتمام به (إيقاظ الهمم ص.34) ،و حين ينتقل الإنسان من مجرد الاهتمام إلى تحقيق ما انبعث بباطنه يلج حينئذ عالم السلوك...

سلوك الإنسان هو حركته في الكون ، هذه الحركة يمكن أن تكون منسجمة مع الإيمان أي المعتقد ، و يمكن أن تكون مخالفة للمعتقد..

الابتلاء يعطي للإيمان بُعدا واقعيا و يبتعد به عن المثالية أو النظرة الفلسفية.

أما المسؤولية فهي إحساس راق بالقيمة و بغاية عليا و سامية لوجود الإنسان فوق هذه الأرض، لا مكان للعبثية أو لندب الحظ أو إلقاء التبعات على الآخرين، المسؤولية هي الإحساس بالكرامة و بلذة النفع و الاهتمام بالآخرين و ربط كل هذه الأحاسيس بالإيمان، بالمنطلقات العقدية.

أيّ سلوك إنساني إنما ينبع من نية مسبقة ، من دافع ما، هذا الدافع له علاقة باعتقادات الشخص ، هذه الاعتقادات يمكن أن تكون متبلورة واضحة جلية، و يمكن أن تكون مبهمة غامضة غير واضحة، و النية كذلك يمكن أن تكون واضحة لا غبار عليها كما يمكن أن تكون مبهمة لا يدري الإنسان ما الدافع الحقيقي الذي دفعه نحو سلوك ما..

هنا تكون نقطة الانطلاق في العلاج النفسي و التي تتجلى في بلورة و توضيح الدوافع الكامنة وراء سلوك ما و التي حتما ستفضي بنا إلى التطرق لقناعات الشخص في الحياة، للمنظومات العقلية و للمنطلقات الإيمانية، للجانب المعرفي بالمفهوم الحديث,,

بالنسبة للمسلم يكون التطرق للدوافع بمثابة اختبار لمنطلقاته الإيمانية على أرض الواقع، ما مدى اقتناعه بالحياة وفق هذه المنطلقات و ما مدى أو درجة تردده في ذلك، و لسنا في مجال الوعظ أو مداعبة الوجدان، نحن في خضم مسيرة العلاج النفسي المبني على أسس و دعائم صلبة و الذي يمتاز أساسا بالواقعية إزاء إلمامه بالمعطيات الإخرى.

هذه المقابلات النفسية المختبرة و الممحصة للدوافع تشكل الأساس و الأرض الصلبة التي يبنى عليها هرم العلاج النفسي بعد ذلك، لذا يأخذ المعالج النفسي كامل وقته إلى أن يحس بأن المراجع قارب الاستبصار بدوافعه و بمنطلقات سلوكه، سواء منه المرضي أو العام، هذه المرحلة معرفية استبطانية من شأنها أن تساهم في مد جسور الثقة و التفاهم بين المعالج و المراجع و تمهد لمقابلات نفسية مقبلة تمتاز بالاستراتيجية العلاجية و توظيف دعامتي الابتلاء و المسؤولية خير توظيف.

مرحلة الاستبصار بالدوافع تجلي تماما دعامتي الإيمان و السلوك و تؤدي حتما للتطرق لمفهوم الابتلاء و الذي يفترض أن يغطي كل المساحة الزمنية و المكانية للإنسان فوق هذه الأرض، هنا تأخذ الأحداث معنى و غاية لهما تعلق وثيق بالمنطلقات الإيمانية، و طبعا هنا لابد أن ننتبه لدرجة الإيمان و لصلابة المنطلقات أو رخاوتها، و مع كلٍّ من ضعيف الإيمان أو قويّه موقف خاص، لكن كل المواقف تتوج حتما بالتطرق لموضوع الابتلاء الذي يتحتم أن يعيه المراجع تماما و يستبصر به و يستبطن عمق مدلولاته، أي يصير جزءا من منطلقاته معانقا بذلك مرمى الحديث الشريف :" عجبا لأمر المؤمن أمره كله له خير...."

و بالتزامن مع التطرق للابتلاء، يكون المعالج في طريقه لترسيخ مفهوم المسؤولية الذي يسمو بدوافع الإنسان و يخرجها من الغموض أو الإبهام أو التردد..

الشعور بالمسؤولية هو الذي يؤذن باكتمال الأدوات اللازمة لمسيرة العلاج النفسي من منظور إسلامي، كل هذه المراحل السالفة الذكر تكون فقط بمثابة نقطة البداية و بداية المسيرة نحو النضج النفسي و الاستقلال و الحياة على بصيرة..

مسيرة العلاج النفسي من هذا المنظور هي اختبار مقومات الإيمان على أرض الواقع، أي اعتماد مواقف إيمانية أيجابية إزاء كل الأحداث التي يمكن أن يتعرض لها المراجع و المسلم على الخصوص بعد اكتمال التصور السالف الذكرو استيعابه جيدا معرفيا و سلوكيا ووجدانيا، يكون صاحب هذا التصور قد بدأ فعليا مسيرة تمتاز بالوعي التام بالدوافع المختلفة سواء منها مواقف الضعف أو القوة، كما أنها تمتاز بنية التغيير أي مفارقة العادة و الانسياق أو الاستسلام لعوامل اجتماعية أو ذاتية مختلفة، و العزم على شق طريق خاص ذاتي متفرد منطلق من مقومات الشخص الذاتية.

المقابلات النفسية المصاحبة لهذه المسيرة العلاجية بعد اكتمال التصورالسالف الذكر، أثناء مناقشة أي مشروع حياتي سواء كان هذا المشروع متعلقا بالعلاقات الأسرية أو الاجتماعية عموما، أو كان متعلقا بمشاريع تجارية أو دراسية أو معرفية أو بالصحة النفسية تحديدا، تضع في اعتبارها الحضور المعنوي الفعلي لمدلول الدعائم الأربعة و التي تمثل الروح الحقيقية لأي سلوك مرتقب ، تكون هذه الروح بمثابة المركبة المعنوية التي تستقلها كل أدوات الإنسان المادية و المعنوية، النفسية و العقلية الفكرية و الوجدانية و الروحية التحليقية خلال رحلته الدنيوية، يكون حينئذ لسلوك الإنسان معنى و غاية و انسجام بين السلوكي و المعرفي، يمتاز حينئذ هذا السلوك بالتلقائية و الصرامة ووضوح خط السير و هي العوامل اللازمة للصحة النفسية.

نريد الآن أن نوقف القلم الذي يأبى التوقف , فالموضوع –كما يقال – ذو شجون ،و الخطاب حين يكون قلبيا تفتح آفاق واسعة ، نمرّ من فكرة لأخرى ومن حقيقة عقلية إلى ترجمتها الوجدانية ، ومنذ البداية طلبت من القارئ الكريم أن يتحملني ويصبر على هذا الأسلوب الحواري ويعتبره حوارا قلبيا مفتوحا ، إحساسا مني بأن الذي سيقرأ هذه الرسالة إلى النهاية كأنه رافقني في رحلتي هذه المتواضعة وتساءل معي نفس الأسئلة وعاش نفس لحظات الحيرة التي عشتها ، كأنه يجول معي في دنيا الناس هذه من خلال ممارستي لمهنتي ومن خلال معايشتي لخلق الله المختلفة مشاربهم وأعراقهم وأجناسهم وثقافاتهم ، ومن خلال تأملاتي فى كون الله الفسيح وحركات البشرية و صراع الحضارات ، وعلى الخصوص مرافقتي في الليالي البيضاء الطويلة المشحونة بالتفكر وبالغوص في حقيقة هذا الكون ، منشئه ومآله ، في تمحيص الحقائق الإيمانية ونشدان السكينة والطمأنينة التي يتحدث عنها أفذاذ من السلف ... هو حوار إذاً، وطبيعة الحوار أن يتنوع ويأخذ شكل الهضاب والسهول والمرتفعات والمنحدرات والأنفاق والوديان ... يلمس القارئ الكريم هذا ويتلمّس ويتحسّس مع ذلك طبيعة الكاتب الروحية ولهفته في مشاركة الآخرين له لما توصل إليه ، وكذا المنبر العلمي الذي يتكلم من خلاله وهو مجال العلاج النفسي من خلال ممارسته لمهنة الطب النفسي.

هذه الرسالة أوشكت على نهاية ما تطمح له من خلال طرح خطورة المنطلق , فهي حاولت التطرق للأسس , أي الآليات النفسية و مقارنتها بما هو متوفر في الساحة النفسية حاليا , تطرقت للب الموضوع مبتعدة ما أمكن عن الفنيات و الجزئيات لأن هذه الأخيرة تعتبر من باب تحصيل الحاصل إذا ما كانت الأصول مفهومة وواضحة , هذا البحث يمكننا بحول الله تعالى في المستقبل من الغوص بعمق في مجال الطب النفسي عموما , نتكلم بتفصيل أكثر و انطلاقا من روح هذا المنظور عن علاج الاكتئاب النفسي و اضطراب الشخصية و الأمراض العصابية أي مختلف الصراعات النفسية , و كذا عن ميدان الإدمان الخطير و الذهانات المختلفة , ندلي بدلونا و بما يوفقنا إليه العليم بخلقه " **ألا يعلم من خلق و هو اللطيف الخبير** " (الملك14) , هو خطوة نظرية ضرورية قابلة للتنفيذ على أرض الواقع و خصوصا في عياداتنا النفسية تتطلب تضافر الجهود و الهمم الصادقة , و ما ذلك على الله بعزيز ...

خاتمــــــــــة

واقع هذا العالم كئيب , مركز على ذاته , يتحدث عن عبارات مثل : " تكامل الذات " أو : " التنمية البشرية " أو " البرمجة اللغوية العصبية " الطريق الأمثل لعلاج أي شيء بـعـضـهـم عـنـد!

و مع كآبة و قتامة الوضع , هناك في المقابل أصوات و صيحات تلوح بسعادة لو تحققت فعلا على أرض الواقع لكنا حقيقة في مثل جنة النعيم..!

هذه الأصوات التي صارت تملأ أرجاء الكون من جهاته الأربع تغتني على حساب المحرومين والجاهلين , تبيع لهم الوهم و تعمق من تبعيتهم و من استغراقهم في عالمهم الباطني كما يقولون , و ليته كان عالمهم الباطني النابع حقيقة من معتقداتهم و من عمق شخصياتهم , إنما هو عالم ليس له من الباطنية إلا كونه غير مرئي , أما سداه و لحمته فهي إيحاءات و أفكار و منطلقات و عمق شخصيات هذه الأصوات التي صكت و تصك أسماعنا و تزكم أنوفنا و حناجرنا , لا رادع لها و لا وازع أخلاقي , و قد سخرت كل وسائل الإعلام و الدعاية المتاحة لترويج منتجاتها , و من حقنا بل من واجبنا أن نتعرف عن كثب على طبيعة هذه الصيحات..

التنمية البشرية كما أراها تنمية شاملة تهمّ أساسا الروح , النفخة الإلهية , حيث يُصحّحُ مسارها لتعانق طريق الفطرة المؤدي للسكينة الحقيقية , و تهم بعد ذلك النفس أي تصقل الدوافع و تهذب الغرائز لكي تتلاءم مع نورانية المركبة الروحية في عروجها ..

هذه هي التنمية الحقيقية كما أراها , و ليس فقط النفخ في النفوس الضائعة التائهة و الحائرة و المكتئبة , و التلويح لها بمضاعفة قدراتها سواء منها التركيزية أو الإبداعية أو الابتكارية, واستغلال القدرات اللامحدودة لديهم بأقصى طاقة ممكنة , يقولون بأننا نوظف فقط خمسة بالمائة من قدراتنا ,..فكيف لو اشتغلنا بكامل طاقاتنا ؟!!

الخطاب الإنساني و النفسي يجب أن يتحلى بقدر كبير من الورع , من الوازع الإيماني , من خشية الله تعالى و من مراقبته في السر و العلن , و يتسلح بالعلم بالله و بمناط الأحكام الشرعية , و بوظيفة الإنسان فوق هذه الأرض أي استخلافه فيها , هذه المعاني هي التي تهب السعادة الحقيقية للإنسان , لأنها تتوجه بالخطاب إلى قلبه , إلى حقيقته الإنسانية , لروحه , النفخة الإلهية التي تسكنه...

لكن هذا الخطاب ليس خطابا أجوفا , و ليس مداعبة للوجدان أو وعظا أو نصائح عامة , هذا الخطاب نابع عن علم حقيقي و عن مراقبة صادقة و عن هم كبير يحمله صاحب هذا القلب , يدفعه لإرادة الخير لكل الناس , لكل ذي روح , يعيش مع الناس بشبحه و روحه محلقة في رحلتها نحو الخلود الحقيقي برفقة أرواح طاهرة نهجوا نفس نهجه , و خلدوا في التاريخ صفحات بيضاء مشرقة لما أنكروا ذواتهم و أنانيتهم ووجهوا قلوبهم و كل ما يملكون نحو خالقهم و موجدهم , و ألحُّوا على طرق الباب عساه يفتح لهم ,و حين حصل مرادهم تضاءلت كل علومهم و معارفهم و مكاسبهم من قبل هذه اللحظة , بل هذه اللحظة أزرت بمعارف البشر طرا عدا من أكرم بمثل ما أكرم به هو , وورد من نفس النبع , ثم تتوالى المنح و الكرامات , فكل لحظة أو ومضة بعد ذلك تقطع بكيانه بلايين المسافات و تزري بعمر الأرض كلها , " قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم .."(المؤمنون113) , يقولها الكافر بعد أن يعاين هول الحقيقة , و هو الذي كان يعتقد بأن أيام و سني هذه الفانية هي أقصى غاية , "...ذلك مبلغهم من العلم.." (النجم30)

خطابنا للإنسانية يجب أن ينبع من حقيقتنا , من عمق شخصيتنا و من كياننا , و إلا كان تقليدا للغير و نطقا بلسان الآخرين , أي لا طعم له و لا مصداقية , " كمثل الحمار يحمل أسفارا .." (الجمعة5)

الأهم من الخطاب ذاته هو محتواه , فنحن نتكلم في عالم معاني و حقائق و فلسفة حياة , مهنة الطب النفسي تُقرّبُنا أكثر من المعاناة الإنسانية , و احتكاكنا اليومي بآلام الناس يُجْبرُنا على تجاوز ذواتنا شئنا أم أبينا , مطلوب من المعالج النفسي الإطلالة على نفسية الآخرين, بل ربما على معتقداتهم و خلفياتهم الفلسفية ,و بالطبع و خصوصا على ضلالاتهم وانحرافاتهم الفكرية,لأن سبب المعاناة المعنوية في الغالب ناتج عن خلل أو اختلال في التصورات و في الحكم على الأشياء البعيد عن المنطق و الواقعية ,و في تحليل هذا الشخص المُعاني لدوافع الناس تجاهه , كإحساسه بالاضطهاد أو بالظلم المسلط عليه أو بالاحتقار و الازدراء,,, عالم من الأحكام و التصورات و الاعتقادات يتحتم التعرف عليها و إلا ـــــ دون أن يشعر بذلك ـــــ يدخل المعالج نفسه في منظومة المريض , فمعرفة المعالج لخلفيات المريض تفيده هو أوّلا كي يأخذ الحيطة اللازمة , و يحترس من أن تأخذه أمواج نفسية المريض المتلاطمة أو التي تخبط خبط عشواء , فيلتهمه أحد الأعاصير الساحقة و يبتلعه في طريقه المدمر....

حين نكون صادقين في معاملتنا مع المرضى النفسيين ,و أقصد بذلك حين نكون أنفسنا، حين نعرض بضاعتنا ـــــ إن صح التعبير ـــــ كما هي , قبلت أم لم تقبل ,نكون قد ضمنا المصداقية , الشرط الأساسي في نجاح أي مشروع في الحياة , ثم بعد ذلك إذا تجاوبت هذه " البضاعة " مع نفسية المريض يكون النجاح حليف هذا المشروع العلاجي في أغلب الأحيان , و إلا انطلق هذا المريض إلى آفاق أخرى تتجاوب مع نفسيته و منطلقاته , و يكون المعالج حينها في مأمن من أي رد فعل سلبي أو تصور خاطىء من قبل المريض, و حين يتعلق الأمر بالمريض المسلم , فالخطاب معه من هذا المنطلق آكد , و النتائج في أغلبها طيبة.

لا يفيد تطبيق فنية علاجية أو تقنية بغض النظر عن الروح التي تكمن خلفها , المعالج النفسي العقلاني على سبيل المثال ينطلق من منطق و عقلانية يؤمن بهما و بصحّتهما , هذه هي روح الفنية بعد ذلك , نوع من " اليقين " أو " القناعة " فيما يراه صوابا , و هذا اليقين لدى المعالج هو الذي يشكل القنطرة الحقيقية بين المعالج و المريض , بدون هذا اليقين تكون العلاقة فارغة من محتواها , من روحها , و هذا مع سائر الفنيات العلاجية.

هذه الرسالة حاولت توضيح هذه النقطة بالذات , و هي خطورة المنطلق و أهميته في أي مسيرة علاجية نفسية و أي مشروع علاجي نفسي , و بالنسبة للمنظور الإسلامي فوجود هذه الروح آكد , و قوتها من مرجعيتها الغيبية و من ربط مصير الإنسان بعاقبته بعد الموت, نظرة تتجاوز البعد الأرضي التدافعي البسيط لتضفي معنى عميقا و بعيدا و ساميا على تصرفات الإنسان و تحركاته , بل و سكناته و خطراته. هذا المعنى هو روح العلاج النفسي من منظور إسلامي , و هو الذي يجب أن يكون حاضرا في أي مقابلة نفسية يراد لها أن تستقي معانيها و قوتها من هذا المنظور , و هو الذي يجب أن يفهمه و يتفهمه المرشح لمثل هذه المسيرة من أول وهلة و من بداية المشوار , فهذا الذي يعطي المصداقية لمثل هذا المشروع العلاجي و بالتالي يتيح أوفر الفرص للنجاح ...

و بعد , هذه خطوة و لبنة ـــــ كغيرها من المساهمات الصادقة ـــــ في بنيان العلاج النفسي من منظور إسلامي , هي مساهمة متواضعة , حاولت من خلالها أن أنقل للقارىء الكريم قناعاتي و نظرتي لهذا الميدان الخطير , ميدان النفس البشرية , و ميدان العلاج النفسي على الخصوص , فإن كان قد حالفني الصواب فيما قدمت فبتوفيق من الله العلي العظيم , و إن جانبني الصواب في بعض جوانبه فمن تقصيري و من نفسي , و إنما كان غرضي من هذه الرسالة منذ البداية عدم كتمان علم أمرنا بتبليغه و رسالة أراها واجبة في حق من رزقه الله فهما معينا في ميدانه , واجب عليه أن يطرحه للنقاش و المداولة و المذاكرة , و لم لا ليشكل موضوع دورات مكثفة تجمع الهمم العالية و الصادقة من أهل الاختصاص في ميدان علم النفس و علم الاجتماع و الطب النفسي و الطب عموما , لتخرج بتوصيات و بنظرة تكاملية , فهذه الأمة معطاءة و الحمد لله , ينقصنا فقط أن نجتمع و نواجه نظرتنا و رؤانا لهذا الميدان الخطير , و ما دامت الرغبة في الوصول لحقائق الأمور هي حادي هذه الدورات , و التوكل على الله هو التيار الساري و المحرك الأساسي للمشاركين , فسيكون التوفيق الإلهي إن شاء الله حليف هذه الجهود , " و ما توفيقي إلا بالله , عليه توكلت و إليه أنيب .."(هود88) , صدق الله العظيم و الحمد لله رب العالمين .

[1] عدنان: هل إذخال الخلفية الدينيو يسمح بالقول أنها نظرو بشرية؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

[2] علم النفس الفردي ص.143

[3] Les theraphes breves” (D.MEGGLE),page 27